الجواب الأخير

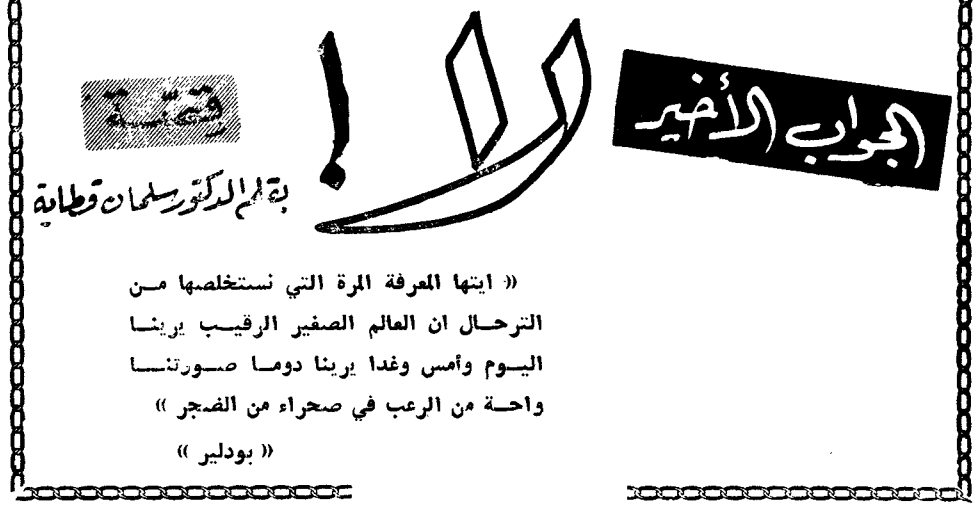

قصة

بقلم الدكتور سليمان قطاية

« ايتها المعرفة المرة التي نستخلصها من
الترحال ان العالم الصغير الرقيب يرينا
اليوم وأمس وغدا يرينا دوما صورتنا
واحة من الرعب في صحراء من الضجر »
« بودلير »

« استيقظت صباحا مستريح الخاطر ، هادىء البال . كأنما ولدت نفسي من السديم من جديد .

ورغم الصداع الذي كنت اشكو منه ، فقد كنت اشعر براحة نفسية غريبة عميقة .

ولكن .. وبكل أسف لم يدم ذلك الشعور وتلك الراحة زمنا طويلا، فسرعان ماهاجمتني افكاري اليومية التي كنت ارددها دوما حتى اعتدتها واصبحت اشعر بالحنين اليها كلما شغلت عنها ، وافرح بلقاها كلما طال بعادها .

ولكنني في هذه المرة شعرت بنفسي بيضاء نظيفة جديدة ، واضطربت عندما عادت افكاري المعتادة الي ، فاستقبلتها بفتور !

كان علي مساء ان اذهب للاستماع الى محاضرة الاستاذ « ه » ولقد قررت الذهاب الى « الجمعية الادبية » وليس ذلك حبا بالاستاذ واعجابا به ، فهو رتيب كئيب ، انما كي اشعر بنفسي كلما وجدت في مجتمع اكاد ان اجهله بكليته .

وهكذا كان .. وفي المساء ذهبت الى مقر الجمعية الفاخر وقبل الساعة المضروبة بنصف ساعة ، فلم اجد هناك سوى فئة قليلة من اعضاء الجمعية ، بالبستهم الانيقة ، ووجوههم « اللماعة » الهادئة ، ومنها تطل الرفاهية والدعة ، والراحة .. والحقارة ايضا ..

واقبلت عليهم مسلما .. فردوا التحية بفتور ، ثم نظروا الي شزرا، وبازدراء !

فضحكت بهدوء ، ثم بعنف شديد . وكنت اريد ان ابين لهم حقارتهم فقلت : « سادتي .. انه ليشرفني ان ازور جمعيتكم الموقرة . وان استمع الى المحاضرة القيمة التي اسهمتم في تقديمها »

فاجابني احدهم ، وهو رجل قد جاوز العقد الرابع من عمره ، وعلى انفه الدقيق نظارة سميكة ، وكان رأسه كرأس عصفور . اجابني بقوله وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة مصطنعة : شكرا ... عال .. حسنا .

فضحكت في قرارة نفسي . وقلت : ياللسخف ، والتناقض ! اين الكرم وحب الضيافة ؟

وهززت كتفي استخفافا ومضيت الى اول مقعد فالقيت بنفسي فيه .

وبدأ الناس بالتوافد ، وامتلأت القاعة تقريبا .

وفجأة لمحت وجه صديقي « ك » الذي تشاجرت معه البارحة بسبب قصة عادية . فاقبلت بنظراتي عليه مسلما ، فلم يعرني التفاتا .

فعذرته وقلت : لعله لايزال على غضبه !

فنهضت وذهبت اليه توا ، وكان رأس العصفور في ذلك الحين يتكلم معه وقد بدأ منشرح الصدر !

قلت لصديقي « ك » وكأنني اتابع حديثا سابقا :

ـ لست اسفا عى ماحصل ! المهم ان ترضى وارضى ثم ننسى .

فالتفت « ك » الي كالمصعوق وقال :

ـ شكرا .

واحسست بهذه الكلمة كالقذيفة .

والتفت الي رأس العصفور متابعا حديثه .. ولكنني لم ايأس ولم انزعج وداخلني شعور التلميذ امام عتبة الامتحان فقلت لنفسي : ساجتاز هذا الامتحان بنجاح . فاستقمت ، واصلحت من وضع ربطة عنقي . وتنحنحت وهمست :

ـ لا شك ان القدر قد داعبنا بخشونة ! أليس كذلك ؟

فالتفتت عيناه نحوي ثم عادتا الى مكانهما السابق ..

وتابع الحديث ..

وهممت بالمثابرة حتى النجاح ، ولكنني وجدت ان هذا عمل لا جدوى منه ، وان « ك » سخيف تماما .. وبعد فالحياة هكذا ..

فابتسمت طويلا،طويلا ؟! ولبثت في مكاني محملقا في الرجلين اتابع كلامهما بعيني . وكأنما شعرا بوطأة نظراتي « الذكية » فابتعدا .. فرفعت يدي ، لاضع وجه « ك » ، بالقفا ، كما يجب ، وكما كان من حقي ان افعل لابرهن على حريتي في الوجود .. كنت اريدها صفعة مدوية لتوقظ حواسي .. وارتفعت يدي بالفعل .. ولكن حانت منه التفاتة فسقطت يدي الى جانبي ..

وصعد الاستاذ « ه » الى المنصة ، وانهال علينا بكلام . فحدقت فيه وقد لمعت نظارته الذهبية فوق انفه الضخم . تخيلت انه ابكم ، وانه يحرك يديه ، ويفتح فاه .. بدون صوت . ففضحكت بسرور لهذه الفكرة .. اللذيذة .. واستدارت الرؤوس ، وصوبت النظرات علي . وعلمت ان ضحكتي جاءت بعد حملة مليئة بالعواطف الحزينة ، والمرارة الاكيدة عن حبيب هاجر لئيم ، وصفه احد الشعراء !

فتركت المحاضر ونظارته ، وتحولت الى الاخرين . وراعني مشهد الرؤوس من الخلف ، وقد استدارت كمكرات البطيخ ورحت اعدها مرارا وتكرارا . وفجأة وقعت على شخص غريب في الطرف المقابل .. أبيض

الوجه ، أزرق العينين .. زرقة باهتة سخيفة بلون دخان السيجارة .
وانتابني شعور قوي بكراهية العيون الزرقاء وعجبت لألوان العيون !
كان الرجل قد جلس بهدوء واطمئنان صفيق ، واضعا رجلا فوق رجل ، ووضع امامه : كرشا صغيرا مكورا .

كان ينظر الى الامام برقاعة ! وما لبث أن اخرج من جيبه غليونا طويلا ، فوضعه في زاوية من فمه وراح يدخن بفطرسة !.. فتألمت لذلك الحال وقلت : يا له من مسكين لو كان مكاني لادرك انه لا شيء .. لا شيء على الاطلاق .

ولكنه ـ الصفيق ـ كان يبدو مغتبطا بوصفه اذ كان يحدق بشقة واطمئنان فاسفت لكوني مرتبطا بشعوري مع الاخرين . وبأن حريتي مرتبطة بذلك الشعور . وقلت : آه . لو كانت لي حريتي المطلقة الكاملة اذا لقذفت بوجه هذا المتكبر المتغطرس بشيء ما ... بحذائي مثلا ؟!.. ولالقن هذا المغرور درسا في الوجود العادي .. العادي جدا لهذا الجدار . ولكنه لو ادرك نفسه هذه المشكلة لداخله الشعور بالحقارة ... الحقارة لنفسه وللجميع ، ولعدل من جلسته هذه حالا وبسرعة . ولدخل في طور جديد مثلما دخلت انا .

وتركته ، بنظراتي ، رغم شعوري الشديد بالانجذاب نحوه . واسترقت النظر ، كطائر ، الى قدمي الاستاذ المحاضر ، فراعني انهما ضخمان ! وتخيلته حافي الاقدام .. فابتسمت ، ثم ضحكت فالتفتت الرؤوس (ككرات البطيخ) ونظرت الي .. فزاد ضحكي .. وحانت مني التفاتة الى جاري فرأيت الدموع تطفر من عينيه ، وعلمت فيما بعد ان المحاضر كان قد استرسل في حديثه عن نفس الشاعر والحبيب الهاجر !.. عجبا .

قلت : فلنقلب الصفحة ولنغير الموضوع عمدا .

ونظرت الى اليمين فرأيت امرأة في الثلاثين من عمرها ، وقد استمرت على كرسيها بهدوء واحتشام . وضعت يديها على ركبتيها منبسطة ، والصقت ساقيها الواحدة جانب الاخرى . واستكانت تقاطيع وجهها ، كوجه لعبة ، لا تنطق بشيء .

ولمعت ، فجأة ، عيناها الخضراوان بنور غريب ، بينما التصقت شفتاها الصغيرتان ببعضهما دون حراك . وخيل الي بغتة انها قطة ، ذات عينين خضراوين براقتين ، وقد القت على مؤخرتها ، وانكأت على طرفيها الاساسيين ! وعدت بسرعة ، بعد ذلك ، الى المرأة نفسها احملق فيها . وقلت لنفسي : انها قطة حتما .. وككل قطة فهي تحب اكل اللحوم . وشعرت بان هذا الاستقراء ذو حقيقة . ورغبت ، آسفا ، لو انني استطعت بعد المحاضرة ان اتأكد من ذلك بصراحة ... ولكن هيهات !

ويظهر ان المحاضرة قد انتهت ، او هكذا خيل الي ، لست أدري ، وصفق الناس ، فنهضت لانني شعرت بالتعب والضيق وافسحت لنفسي طريقا بين الحاضرين وخرجت .. واذا بجاري « العاطفي » يخرج ثم يستدير نحوي ويقول باسما :

ـ لم تنته المحاضرة بعد .. فلماذا خرجت ؟

فأجبت :

ـ لقد انتهى كل شيء ، بالنسبة لي .. انه العدم !

ضحك فقال :

ـ لقد ضقت ذرعا بكلامه آخر امري ، وادركت عقدة نفسه الحقيقية ، ونقطة الارتكاز !

قلت :

ـ ما هذا ؟ ماذا تقول ؟ بل ماذا تريد ؟ قل ، افصح !..

ضحك .. وتنهد ، ثم قال :

ـ فلنمض .

ووددت ان اقف لاصيح به مستغربا :

ـ اين تريد الذهاب ؟ ومن انت ؟ انا لا اعرفك !

ولكنني لم انبس ببنت شفة وتابعت المسير . بينما وضع يديه في بنطاله وانطلق بخطى وئيدة حثيثة !

قال :

ـ لعلك من عشاق الادب ؟

فقلت ببرود :

ـ كلا .

قال :

ـ اذا فانت من اولئك المدعين الذين يدافعون عن اغرب النظريات في الادب بغية الشهرة !

فقلت :

ـ وما هي الوجودية هذه ؟

وهنا توقف عن مسيره وحدق في وقال بهدوء رهيب :

ـ هل انت موجود ؟

ففكرت لحظة بجد ووقار واجبت :

ـ لست ادري !

وارتسم العجب على وجهه، وجحظت عيناه حتى كادتا ان تتركا محجريهما وقفل راجعا وقال :

ـ سأعود .

فقلت ، وكأنني في غيبوبة

ـ وداعا !

ورفعت يدي الى اعلى ثم سقطت الى جانبي .

تنفست الصعداء بعد لحظة ، كأنما أزيح ثقلا كان يرزح على كاهلي. وقلت لنفسي : يا للحماقة !.. بل يا للجهل .. ولكن فلأدعه مع الشاعر وحبيبته .. والمحاضر والقطة .. فلسوف يصل الى نفس النتيجة ..

وظللت بضع دقائق وانا انظر يمنة ويسرة ، فلم يكن لي وجهة معينة، والوقت مبكر ، ولم اكن اشعر برغبة في النوم . ورحت افكر في وسيلة لتمضية الوقت والسهرة ! ورغبت في زيارة مكان لم أزره منذ زمن بعيد . ولكنني بعد ان استعرضت الاماكن التي اعتدتها وجدت انني قد زرتها منذ امد قريب .

وهنا ، جاءتني فكرة جديدة (وشد ما احب في نفسي هذه الطبيعة ايجاد الافكار السريعة والحلول العملية ؟!) ان اذهب فازور طبيبا ما وافض عليه قصة طويلة عني ، فقد مضى زمن طويل لم أر فيه طبيبا . وقد اقع على ما يسليني ويربطني بوجود الاخرين .

مشيت وانا اقول : سأدخل الى ثالث طبيب اصادفه في طريقي. وبدأت اعد وانا اتصفح لافتات الاطباء : واحد .. اثنان .. ثلاثة

وصعدت السلم بسرعة ودخلت .. واذا بغرفة الانتظار ، وشاب (يظهر انه الممرض) يستقبلني بابتسامة ترحاب ، ورجاني ان انتظر لحظة ففعلت. وعندما استدرت وجدت نفسي امام وجهي .. في المرآة .. فاقتربت وصحت :

ـ يا الله لشد ما تغيرت حتى لم اعد اشابه نفسي القديمة مطلقا . ما اصعب تحمل الحقيقة والاعتراف بها !

شعرت بسرور عميق ، سحيق في قرارة نفسي .. لان شيئا ما قد

تغير ! ورحت احدق من جديد واتفحص التفاصيل والدقائق ، ووجدت ان عددا من الجزيرات قد بدأت في الظهور في رأسي بسبب سقوط شعري مع تقدمي في السن ، وازدادت تجاعيد وجهي عددا وزادت عمقا وحدة . وراعني ، خاصة ، هزالي وشحوبي. فاصابني ما يشبه الذهول.

وجاء الممرض يدعوني لدخول غرفة الفحص .. وفعلت . فوجدت الطبيب وقد انتصب وراء منضدته مرحبا !

وجلست بعد ان دعاني وقال :

ـ ما بك ؟

واستدركت شجاعتي فجمعت اطرافها وحملقت في الجدار امامي هنيهة وقلت :

ـ انني اشكو .. اشكو من كل شيء.

فقال :

ـ حسنا ولكن اليس هناك من موضع يؤلك اكثر من غيره ؟

قلت :

ـ هذا بالضبط ما عنيت !

قال :

ـ عال .. اين ؟

ـ هنا

واشرت بسبابتي الى صدري . قال :

ـ هنـــا ؟

قلت :

ـ نعم انني اشعر بنخرة هنا .

قال :

ـ هل تسعل ؟

قلت :

ـ احيانا ، واضفت :

ـ ثم انني معدوم القابلية والنوم ، ولقد فقدت من وزني الكثير .

وبدا الجد والصرامة على وجهه . وتناول ادواته وبدأ يفحصني بدقة وعناية . ففلت لنفسي: لقد نجحت وها هو مهتم بالامر جديا .. ستكون هناك مفاجأة !

ولم يلبث الطبيب ان قطب حاجبيه ووقف هنيهة ثم قال :

ـ من المستحسن ان ارى رئتيك خلال الاشعة . فاحنيت رأسي موافقا.

واطفأ النور ، ووقفت وراء الجهاز. وعدت اردي ثيابي بينما جلس خلف منضدته وتمهل ، ثم سعل .. وحدق في قدميه قليلا وما لبث ان رفع انظاره وثبتها في وقال :

ـ يؤسفني ايها السيد ان اخبرك بنبأ غير سعيد .. ولكن لا تخف .

فقلت ببساطة :

ـ لست خائفا .

قال :

ـ امتزوج انت ؟

قلت :

ـ لا

قال :

ـ أتعيـل احدا ؟

قلت :

ـ لا ، انني وحيد

فقال :

ـ اذا ليس علي الا ان اصارحك بحقيقة الامر .

ونهض ثم ادار لي ظهره ، ونظر خلال النافذة الى بعيد ، وما لبث ان استدار الي ، بحركة مسرحية ، وقال :

ـ انك مصاب بسرطان الرئة !

.. تابعت ارتداء ملابسي بهدوء. وظل الطبيب منتصبا يحدق في بذهول . ثم جلست على المقعد واخرجت سيكارة وقلت له :

ـ اتدخن ؟

فهز برأسه ان لا . قال :

ـ هل تعلم ماذا يعني : سرطان الرئة ؟

قلت او بالاحرى تساقطت الكلمات من فمي بهدوء ورتابة كأوراق الخريف :

ـ نعم . انه الداء القتال ... العضال . اليس كذلك ؟

فبدا عليه العجب والغم وصاح :

ـ الا يحزنك ذلك ؟

قلت :

ـ لا .. ما دام هذا السرطان لا يشعرني بوجوده ، فانا لا اهتم به ولا اقيم له وزنا فكلانا مستقل عن الاخر ذاتيا .

فتمتم بكلام غير مفهوم ، وهز رأسه بهدوء .

والقيت على المنضدة بورقة مالية وانصرفت .

*

عدت الى غرفتي توا. واويت الى الفراش في الحال وانا افكر في المحاضرة وفي الوجوه التي رأيتها هناك . ثم نمت نوما عميقا لم اسعد بمثله من قبل .

في اليوم التالي عندما ذهبت الى المكتب في دار البريد حيث اعمل وجلست خلف الكرسي العتيد القديم وراء منضدتي . وبينما كنت اقلب الاوراق تذكرت ما قالـــه الطبيب « انك مصـــاب بسرطان الرئة » فضحكت غبطة وسرورا ، والتفت الى زملائي وهم منهمكون في الحديث عن السهرة التي امضوها ليلة البارحة .

فوقفت ، بغتة ، وحدقت فيهم طويلا .. فالتفتوا وقد استرعب اذانهم الضجة التي حدثت عندما دفعت الكرسي الى الخلف لانهض واقفا .. اتخذت وضعية الجد والرزانة وقلت برنة رهيبة :

ـ ايها السادة الزملاء .. انني مصاب بسرطان الرئة ؟

فوجموا كالمصعوقين ، امام هذا النبأ .

فخامرني شعور غريب ولكنه لذيذ . قلت لنفسي : لقد القيت بتلك الجملة مثل « يوسف وهبي » او احسن منه . لقد استطعت ان اوقف ثرثرتهم التي لا تنتهي ، لقد تمكنت من صعقهم بقصة عن ذاتي وكياني . لقد ربطت مصيرهم بمصيري ولو لبضع دقائق صغار .

قال احدهم :

ـ كيف ؟ هل هذا صحيح ؟

قلت بلذة وغبطة :

ـ نعم . لعلكم لاحظتم شحوبي ونحولي في الايام الاخيرة .

فأجاب اخر :

ـ هذا صحيح ، ولقد لفتنا نظرك الى ذلك مرارا دون جدوى .

قلت :

ـ لقد ذهبت البارحة الى طبيب اخصائي بامراض الصدر ! وبعد الفحص الدقيق على الاشعة تبين له ذلك .

فوجموا من جديد . وزاد شعوري باللذة الغريبة عمقا .

ثم قال اخر :

ـ لا تصدق . لعله مخطىء ... اذهب واستشر غيره .

قلت :

ـ انه واثق من ذلك .

ثم تهالكت على الكرسي ، ووضعت رأسي على جبهتي كانني اريد البكاء .

وسمعت احدهم يقول :

ـ لا حول ولا قوة الا بالله .. يا للمسكين !

فوددت لو شتمت هذا الخبيث الذي كان لا يكف كل يوم عن الحديث عن النساء ومعاكسته لهن . وقلت لنفسي : لعل ذلك يذكره بالموت فيتعظ .

واقبل البعض حولي ليبعثوا في الامل ، عارضين خدماتهم ، مقترحين اسماء اطباء اخرين في دمشق وبيروت والقاهرة ... بل حتى عرضوا علي المساعدات المادية . ولكني كنت واجما لا اجيب وفجأة ، نهضت وقلت :

ـ زملائي ، اخواني . اشكركم جدا على تصرفكم هذا . ولكن دعوني وشأني ، دعوني وهمي فانا رجل مسكين !

فقال احدهم :

ـ يا للمصيبة . يكاد الرجل ان يفقد وعيه .

فانفجرت صائحا :

ـ انتم سبب علتي ، انكم تنظرون الي دوما كهذه الطاولة ، كهذه الطاولة ، كهذه الطاولة .

وضربت بقبضة يدي على المنضدة ثلاث مرات . والحقيقة انني احب جدا رقم ثلاثة . ولست ادري لماذا ؟ ولكن في تلك اللحظة بالذات وعندما سمعت هذه الضربات الثلاث تذكرت الضربات التي تسبق رفع الستار في المسارح !

عندئذ دفعت زملائي بعيدا عني بخشونة وانطلقت خارجا بسرعة . وسمعت اثناء ذلك ، احدهم يقول :

ـ دعوه . لا باس عليه . فليذهب للراحة هذا اليوم وستتدبر الامر.

مضيت حتى الشارع الكبير ... الشارع المعتاد حيث كنت كل مساء اقوم بنزهتي اليومية ، فاصعد الطريق واعود مرارا وتكرارا حتى تكل قدماي فاعود الى الغرفة .... وانطلقت افتش عن تلك الوجوه التي اعتدت مصافحتها بانظاري كل يوم .. ولكني في ذلك الصباح لم اجد احدا ... لعلهم في اعمالهم فما كنت اراهم الا في المساء . كنت اريد رؤيتهم لاقول بطريقتي الخاصة اي بايحاء دون كلام : انني مصاب بسرطان الرئة !

اقتربت من المقهى المعتاد قائلا : لعلهم فيه . ودفعت الباب الزجاجي ودخلت انظر مستطلعا يمنة ويسرة ، واتصفح الوجوه بدقة ... دون جدوى . لم تكن هناك تلك الوجوه التي كنت احس نحوها بالاخوة ، والمحبة .

اجتزت الشارع وذهبت نحو المقهى الاخر ولم ادخله انما اكتفيت بالتطلع خلال الباب الزجاجي : فلم اجد احدا . ولمحت صورتي منعكسة على الزجاج فراعني منظرها : لقد وجدت فيها نشاطا وحيوية لم اعهدهما من قبل . وحدقت في عيني : يا الله . ما هذا التالق والاشتعال .. ما هذه النظرات ؟!

وجدت في تقاطيعي علامات الغبطة العميقة ، والحياة المتفجرة ... والمرح ! كدت لا اصدق الزجاج ورحت اتلمسه باصابعي قطعة قطعة لاتأكد من انني انا نفسي .

دام الامر بضع لحظات . حتى جاء احد الزبائن يريد الدخول فتوقف هنيهة محملقا في عجبا ثم دفعني بخشونة ودخل !

مشيت وانا اشعر بنفسي خفة ورشاقة وحيوية لم اعهدها من قبل. بل احسست برغبة في الغناء (مع انني لم احاول ذلك مطلقا بل انني اكرهه) .... فاقتنعت بالتصفير .

وفجأة : لمحت المرأة القطة . . آكلة اللحوم .

كانت ترتدي معطفا انيقا جدا يكشف عن عنق طويل ناعم رقيق ، وقد نسقت شعرها على شكل حلقات ودوائر ، وازداد وجهها جمالا وبهاء ، كانت تمشي بهدوء وثقة واعتزاز .

فاتجهت نحوها مسرعا وقلت : ساقدم لها نفسي ، وسأسالها اذا ما كانت فعلا تحب اكل اللحوم ؟

ولما اقتربت منها توقفت لحظة كأنما فاجأتها فكرة طارئة ثم انعطفت ودخلت محلا لبيع الملابس النسائية .

فوقفت امام واجهة المحل اتامل معروضاته ، مترددا في الدخول ! ولكن العنفوان الجديد الذي كنت اشعر به آنذاك دفعني الى الدخول . فقلت ..

كانت القطة تقلب بعض المعروضات من البسة واقمشة وتناقش البائع الشاب الذي اقبل عليها وقد ارتسمت على فمه ابتسامة عريضة .

والقى الشاب علي نظرة سريعة ، وعاد يكلمها كأنما أفهمني ان انتظر حتى يلبي طلبها .

ولكنني تقدمت منها ، فالتفتت الي، فقلت متلعثما :

ـ سيدتي ... هل لك ان تجيبي رجائي ؟

فقالت لي بعينها : لماذا ؟ ثم القت نظرة فاحصة ، وركزت نظرها في

اطلب ((الاداب))

في المملكة المغربية الشريفة

من وكيلها العام السيد احمد عيسى صاحب

مكتبة الوحدة العربية

١٧ شارع الملكة (الاحباس)

الدار البيضاء

عيني ، وانتظرت .. فقلت :

ـ سيدتي انني لا أجد العبارة المناسبة انما ..

وكأنما تأثرت بمنظري الشعث البسيط ، فابتسمت برقة مشجعة ، وعيناها قلقتان خائفتان . اردفت فجأة كأنما اريد ان اتخلص من كابوس مخيف :

ـ انني مصاب بالسرطان ..

فتقلص وجهها الرقيق هنيهة . ففرحت بذلك فرحا شديدا ، كدت القي بنفسي عليها ... ولكن ... ولكنها ما لبثت ان مدت لي يدها . وفيها قطعة نقود !! وقالت :

ـ شفاك الله !

صعقت لهذه الحركة الغير المنتظرة . واعتبرت الامر اهانة لا تغتفر . قلت بحدة :

ـ سيدتي ، انني لست شحاذا .. انني ايتها القط (وكدت اقول القطة) السيدة المحترمة أرفع من ذلك . اريد ان تجيبيني على سؤال ... هل تحبين اكل اللحوم ؟

فبدا على وجهها الاستغراب والدهشة مع شيء من التقزز .

فعرفت الجواب : انها حتما لا تحب اللحوم !

واستدارت نحو الشاب بانظارها كانما تطلب النجدة . فقال لي هذا بغلظة :

ـ اذهب من هنا ايها الحقير ، ايها الشحاذ الغبي ...

فاجبت ، وقد سررت ضمنا لان الامر تطور حتى هذا الحد ، وشعرت باعماقي بمرح كطفل يلعب .

ـ لا .. لا لن اذهب حتى انال ما اريد ..

فاقترب مني مهددا وقال :

ـ يا للصفاقة . اخرج .

ودفعني بيده . ولكنني صممت على المقاومة حتى النهاية . قلت :

ـ مهلا ... الا فاعلم من انا ؟

ورفعت راسي فلاحت مني التفاتة عبر الباب ، فرأيت صديقي «ك» في الطريق :

تركت البائع مع القطة واسرعت نحو « ك » .

اقتربت منه ، فالتفت الي باسما . فقلت له بسرور :

ـ صباح الخير .

استغرب موقفي . لكنه قال :

ـ مرحبا . كيف حالك ؟

قلت :

ـ سيء للغاية .

قال :

ـ كيف ؟

فوقفت عن المسير ، وقلت وانا الفظ كل كلمة اثر اخرى بهدوء :

ـ انني .. مصاب .. بسرطان .. الرئة .

ففغر فاه عجبا . وقال بعد هنيهة :

ـ كيف ؟. سرطان ؟ هذا عجيب .

قلت :

ـ وما وجه العجب ؟ الست بشرا كالاخرين ؟..

ولاحظت ان الالم قد رسم على وجهه خطوطا عميقة ... ففرحت وقلت في نفسي : سانتقم منك ايها الحقير ... من اهاناتك المتكررة لي .. ويوم المحاضرة ، يوم أستكبرت فهربت مني . فاردفت :

ـ نعم انه السرطان ذلك الداء الخبيث

فقال :

ـ هلم ... اريد ان أساعدك بكل ما يمكنني . من هو الطبيب الذي قال ذلك ؟ وكيف جرى الامر ؟ هيا .. قص علي كل شيء .

وامسك بذراعي يجرني . فسحبته منه قائلا :

ـ كلا ... دعني وشاني فانا رجل مسكين .. مسكين .

وتركته وهربت مسرعا .

دخلت غرفتي الرمادية ، وذهبت الى النافذة ففتحتها على مصراعيها فوجدت امامي وفي العمارة المقابلة « نوال » بنت الجيران .

كانت نوال فتاة شابة من عائلة بسيطة ، تمتاز بالحيوية والانوثة الناضجة .

كنت احب عينيها العسليتين وقدها المياس .

وطالما عشت معها ساعات جميلة ولذيذة وانا وحدي . ولم افكر ان اعترض طريق حياتها يوما ما . ولماذا ؟

انها حتما ، ككل النساء ، تعتقد انه يجب على الرجل ان يحب فيتزوج فينجب الاطفال ... يا للتفاهة ! ان المرأة تجعل الرجل يحتقر نفسه الى درجة لا تطاق .. فوق درجة الاحتمال .

رنت نوال الي بانظارها من الشرفة وراحت تغني :

« الغرام اصله نظرة » ! فهززت كتفي استخفافا : نظرة .. نظرة .. يا لها من نظرية ؟!.

كنت كثيرا ما اراها فاتخيلها عارية في الطريق .. فاضحك لهذه الفكرة . والغريب انني ما كنت ادرك وجود المرأة الا من خلال الجسد . فكلما صادفت احداهن قارنتها بالرغبة التي تثيرها في وحكمت عليها كليا من خلال ذلك .

واحسست انني اريد ان اتكلم «نوال» لاقول لها انني مريض!وبالسرطان! ولكنني طرحت الفكرة قائلا : لعلها ستظن انني واقع في غرامها وانني ساطلب يدها ثم .. وشعرت بالغثيان الشديد .

كنت دوما اشعر بالفشل والقنوط وبالحيرة .. ولكن اليوم وجدت هدفا : انني مصاب بالسرطان !

والغريب انني اشعر بسعادة لم احلم بها في حياتي وعلمت ان القناعة كنز السعادة الذي لا يفنى .

وفي ذلك اليوم تناولت طعامي بشهية لاعهد لي بها . ونمت في المساء نوما عميقا .

واستيقظت في صباح اليوم التالي على قرع شديد على الباب . فقفزت من السرير بسرعة وانا في غاية الانزعاج . لان تلك اللحظة الصباحية التي كنت اشعر فيها بالصفاء والنظامية الروحية قد ضاعت..

فتحت الباب واذا باخي الاكبر امامي .. انه هو بالذات بقامته المديدة واكتافه العريضة .

كنت اقدر فيه رجولته ، ولكني اتضايق منها في ذات الوقت . وكنت كلما جالسته شعرت بالضيق لقوة شخصيته وجبروتها .

ودخل اخي الغرفة والقى بنفسه في احضان الكرسي الخشبي العريض. وقال :

ـ لقد جئت لنجدتك !

فقلت ببرود :

ـ لست بحاجة الى احد .

قـــال :

ـ بلـــى .

قلـت :

ـ كيف ؟

قـــال :

ـ لقـد علمت انك مصاب بسرطان الرئة ؟

فصحت فيـه :

ـ ومن قـال لك هذا ؟

فضحـك وقـــال :

ـ انـه صديقك « ك » لقد اتصل بي هاتفيا واخبرني بالامر ،فاسرعت اليـــك .

قلـت محتجـا :

ـ ولكني لست بحاجة الى نجدة ... دعني وشاني بالله عليك . كنت طيلة ذلك الحديث اتحاشى النظر اليه وفي عينيه لانني اخاف نظراتـه، وكان الخبيث يعرف ذلك تماما .

نهض واقفا واقترب مني ، وحدق في عيني وقال بصوته الاجـــش ولهجـــة آمـــرة :

ـ هيا . ارتد ثيابك سنذهب معا وسنجد للامر حلا .

قلـت :

ـ دعني ارجـــوك .

وكانني اقـــول :

ـ امـــرك مطـــاع.

... وخرجنا من الغرفة . وذهبنا الى الطبيب « غ » امهر طبيب فـي البلد ، والاخصائي في امراض الصدر .

لااستطيع ان اصف ألمي وحزني واكتئابي خلال تلك اللحظات التـــي قضيتها مع اخي لدى الطبيب . وبعد فحص دقيق ، وفحوص مخبريـة وشعاعية .. .انتهى الطبيب الى حكم قاطع حاسم فقال :

ـ « ليس هناك اية علامة لاي مرض كان ! »

فصحت فيه حانقا وبكراهية :

ـ لن تخدعنا ياهذا واولى بك ان لاتنسى الضمير والواجب .

فوجم الطبيب واحمر وجهه غيظا .

وغضب اخي غضبا شديدا ، وكاد ان يلتهمني بنظراته ، ولكنه احتفظ بهدوئه ، واعتذر بلطف .. .ثم امرني بالخروج .

وفي لطريق كانت مشاجرة عنيفة كدنا نصل بها الى الايدي .

وتركني اخي والغضب ينهش فؤاده .

عدت الى غرفتي فجلست على سريري واجما انظر كمشدوه في الحائط الرمادي . وشعرت بحرقة وغصة . فانكببت على وجهي فوق السريرابكي بالم ومرارة واقول :

ـ لقد فقدت معنى الحياة ... كنت حيا فقتلوني .. المجرمون !

سلمان قطاية

عنكبوت

وطنـي اخـاف عليـك حين أراكـا
تمتد للجـانـي الاثيـم يـداكـا

شركاته شـرك وكـل عهـوده
خـدع فحـاذر طامعـا أفـاكـا

مـا ان تلـوح لـه المغانـم ساعـة
حتـى يبالـغ فـي بلـوغ رضاكـا

كالعنكبـوت متى تقـارب صيـدها
شرهـته وسـال لعابهـا اسـلاكا

نصبت علـى خيط الضيـاء شباكهـا
مـن حيث يلتمس الاسيـر فكاكـا

لايخدعنـك « مغـرب » فـي وده
او « مشـرق » امـا شكا وتباكى

للاجنبـي مطـامـع معـروفـة
سيـان هـذا فـي الـدهـاء وذاكا

النصـح ان لاتستعـين بناصـح
آذى الـوف الابـريـاء سـواكا

مـن لايفيـد مـن التجارب عبـرة
جـرت تجاربـه عليـه هـلاكـا

وديـع ديب